

- كوكو.. كوكو.. كوكو.. كو

استيقظت على صوت الديك. ضحكت. نظرت إلى الشبّاك. نادته. لم يستجب. كانت ترقد على حشية على الأرض، تبعد عن الشبّاك نحو متر. وكان هناك غصن رمانة، بوروده الحمر النارية، يتلاعب مع النسيم في جزء من فضاء الشبّاك، يدخل نوابات أغصانه بين قضبان الشبّاك الحديدية لحظة كأنه يلعب معها، وينسحب. جاء صوت الديك مرة أخرى. أضحكها. كركرت. صوت صافٍ أسر. نادته من جديد، لكنّه أهملها مرة أخرى. توقّف بليل على الستارة، غرّد لحظة وهو يهزّ ذيله، فضحكت من جديد. نادته، مدّت يدها نحوه، لكنّ البلبل لم يرها. أوقفه الصوت، أدار جانبه. حدّق بعينيه المدوّرتين الجميلتين ناحية الصوت: كان هناك مشبك سلكي يصدّ الرؤية لمن في الخارج ويتيحها واضحة لمن في الداخل. وإذا اطمأن أن لا أحد يهدده أطلق دفقة ألحان أخرى. نادته ثانية، حرّكت يديها تستدعيه. لكنّه إذ سمع تغريد صديقه على شجرة بعيدة في حديقة الجيران أجابها بدفقة ألحان رشيقة قبل أن يطير إليها.

توقّف شخير أبيها: شهيق طويل أشبه بالشرجة، ثم زفير قصير جداً. كانت تميّزه عن شخير أمها وزفيرها المتقطع الذي يُشبه دقة صغيرة على منضدة خشبية، وعن تنفّس أخيها الهادئ نائماً. لكنّ عينها لم تفارق الشبّاك. كانت تسمع تغريد البلبل وصديقه من فوق الشجرة البعيدة وتتفاعل معها. وعلى الرغم من أنّها لم يردّا على نداءها المتكرّر فإنّها واثقة أنّهما سيحطّان على الستارة. التفتت ناحية الغرفة عندما سمعت أمها تكلم أباهما.

- نمّ! لم تبكر؟ سنلحق على العذاب.

- يجب أن أستاذ.

- مازال هناك وقت.

- ما إن أفتح عيني حتى يهرب النوم.

أراد أن ينهض. أمسكت يده بقبضه، فجاءت ضحكها قهقهة قصيرة أشبه بلازمة موسيقية لذبذبة مصحوبة بشحنة مغناطيس كبرى جعلت الأب يصبح قريباً. قهقهة بسعادة تفيض على الكون. صفقت بكفيها الصغيرتين، ثم مدّت يديها وكأنّها تريد أن تعانقه، تريد أن تطير. تضحك: سنان علويتان صغيرتان وحيدتان تلمعان كلّ لوتين في لثة وردية. عينان واسعتان، قزحيتان سوداوان وسط بياض كالجليب. أحست بأنفاسه قرب وجهها فحبست نفسها، نفخت خديها، جعلتها كرتين صغيرتين، أوقفت زفيرها لحظة فاحمرّ خدّاه وجبهتها، ثم أطلقت الهواء، فتطاير رذاذ اللعاب من فمها كالرشاش على وجهه. ضحكت من جديد متمتعة بانتصارها. ضحك من كلّ قلبه: «ملعونة.. ماذا فعلت؟»

وهي تحدّق به رفعت فخذها الممتلئة العارية، أمسكت قدمها بيديها الأثنتين، ثم قرّبت القدم إلى فمها. مصّت إبهامها لحظة ثم أبعدها. نظرت إليه بتحدّ. هتفت: «بيب.. بي. بيب...» ثم أعادت الإبهام، التي بدت أشبه ببندقة قانية، إلى فمها.

دفعته زوجته. قالت معبسة: «لماذا من صباح اللّه تدفعنا إلى العذاب! يا إلهي! لماذا لا تدعنا ننسى؟ في الأقل ونحن نيام لا نفكر! تقدّم. دعني أنظفها!»

♦ - رواني وقصاص عراقي. يعيش اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية.

- لا تعبسي بوجهها. إنَّها تفهم كلَّ شيء. لا تُفحميها بالمصائب.
لحظةً ووجدتُ أمَّها تنحني فوقها، وخصلاتُ شعرها تتدلَّى حول وجهها في جميع الجهات. التهبت الحماسةً في عينيها. أطلقتُ قدميها. خطفتُ خصلةً من شعر أمَّها، سحبتها بقوةٍ ترد أن تضعها في فمها. أخذتُ أمَّها تضحك، وهي تفكُّ الخرقَ من حول فخذيهما. نظرتُ إلى زوجها وقالت:

- أنظر. لم تبللُ نفسها في الليل. هذا هو اليوم الثالث. لا أصدِّق عيني!
- لا تحسديها.

- سبعة أشهر فقط.

وضعتها على «القعدة» أخذتُ تضربُ الأرضَ بقدميها. عندها جاءت أمُّها بكوب الحليب. قالت وهي تكاد تبكي:
- هذه آخر ملعقة حليب.

- قلتُ لكِ ابْتَسَمِي عندما تتكلمين أمامها. إنَّها تفهم كلَّ شيء.

- ...

- متى تدركين أنَّ الأطفال يفهمون كلَّ شيء؟

- ماذا أدرك؟ سبعة أشهر فقط وتفهم كلَّ شيء؟ أليس هذا بجنون؟

تغيَّرتُ عينا الطفلة. شيء ما كمدَّ إشعاعَ السعادة في عينيها، فاقترَبَ منها مبتسماً. نَفَخَ في وجهها. رجعتُ إلى الورا. ضحكتُ. ضحك. أخذتُ كوبَ الحليب من أمَّها، لَفَتُ أصابعها الدقيقة حوله. كان يضع راحته تحت الكوب من دون أن يلامسه كي لا يسقط. رَشَفَتُ رشفةً واحدة. رفعتُ رأسها. كانت شففتها العليا ملطخةً بالحليب. حدقتُ به بتحدُّ، كأنَّها تقول له: «أنظرُ ماذا أستطيع أن أفعل.»

قهقه وهو يقبلُ يدها: «أنت بطلة.. تشربين من دون رضاعة.. بطلة..»

ابتسمتُ بينما جلستُ أمَّها على الأرض فوق حشايا المنام، ورأسها بين يديها، وهي تكاد تبكي. وخبَّمتُ أنَّها ماتزال تفكِّر بحليب الطفلة، بطعام أخيها ذي السنوات الثلاث، بطعامهما، بالمستقبل المظلم الذي ينتظرهم.
- سأعد لكِ الشاي.

- لن أكل. قال الطبيب يجب أن أبقى على الريق.

التفتتُ إليه:

- لن تبيعها.

عبس بغضب:

- ماذا؟ نحن أطفال؟ أعطيتهم كلمتي.

- لن تبيعها.

- لكنتِ البارحة وافقتِ.

اقتربتُ منه. جلستُ على المنام قرب الطفلة: «فكّرتُ طول الليل. بعد أن نمّتَ ظللتُ أبكي حتى الرابعة. كم كُليّةً عندك؟ اثنتان فقط! أنت الآن شابٌ. مَنْ يَدْرِي بعد أربع، خمس، عشر سنوات، ماذا يَحْدُثُ لإحدى كليتيك؟ ماذا تَفْعَلُ عندها؟ ستموت. معظمُ الناسِ عندهم أمراضُ كُليّةٍ، وتضحّي بنفسك؟ ثم ما قيمةُ الكُليّة؟ كم ستأخذ؟ كم شهراً ستبقى الفلوسُ عندنا؟ حسبتُها البارحة، لن تكفينا أكثرَ من أربعة أشهرٍ وبعدها ماذا ستبيع؟ عيونك؟ لن نبيع شيئاً أبداً. ألا يكفي أننا بَعْنَا الثلاجة، التلفزيون، السجّاد، الأسرة، المكيفات؟ ألا يكفي أننا ننام على الأرض؟»

- أنموتُ أولادنا من الجوع؟

- سأعطي رجاء لأمّ علي.

هتف مستنكراً:

- نبيع طفلتنا؟

- لا، ليس يبعاً. اتّفقتُ معها. مستعدةٌ وزوجها أن يوفّعا وثائقَ رسميّةٍ بموجبها نستردّ ابنتنا متى شئنا، متى تَنفُرج الأمور. قالت لي أن ليس عندها مانع حتى لو انتقلنا كلنا عندها إلى بيتها. لقد فرغ البيتُ الواسعُ، بعد أن هَرَبَ وهاجر أولادها الأربعة إلى الخارج. طابقان. الطابق العلويّ فارغ. أربع غرف خالية. يريدون بعض الحياة في البيت.

- لن أبيع طفلي.

- إذن، اخترَ بيني وبين بيع كُليتك. إنْ ذهبتَ اليومَ إلى المستشفى فلن تراني حتى الموت.

شيكاجو